

المنشآت المعمارية المائية الأثرية بمدينة قسنطينة العتيقة

Archaeological water architectural installations in the ancient city of Constantine

خديجة قشيرة* ، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 02

khadidja.kechira@univ-constantine2.dz

تاريخ النشر: 2024/12/31

تاريخ القبول: 2024/12/10

تاريخ الإرسال: 2024/07/12

ملخص:

ترتبط حياة الإنسان بالماء، إذ يعتبر هذا العنصر الحيوي تراثاً مائياً تشترك فيه جميع حضارات العالم القديم، التي ازدهرت حيث تواجده لضمان بقائها واستمراريتها. ونهدف من خلال هذه الورقة البحثية، إلى إبراز تقنيات تخزين ونقل المياه لمدينة قسنطينة العتيقة، بمختلف الطرق والأساليب التي تبنتها كل حضارة (الرومانية والعثمانية)، من أجل استغلال هذا العنصر الحيوي في بناء المجتمع وتطوره. حيث وضعت كل حضارة مرّت بهذه المدينة استراتيجيات وخطط بديلة لضمان توفر الماء وقت الحاجة إليه، تحسباً لتقلبات المناخ وقلة تساقط الأمطار. وللموضوع أهمية بالغة في اعتماد هذه الحضارات خاصة الرومان، على بناء منشآت معمارية مائية لحفظ المياه كالخزانات والأحواض، من ثمّ وضعت أساليب وتقنيات لنقل المياه إلى مدينة قسنطينة العتيقة، عبر قنوات وصولاً للمرافق العمومية والمساكن المكونة لها، كما وقمنا بتحديد أهم المنشآت المعمارية المائية خلال الفترة العثمانية، مع إبراز مكوناتها وتحديد دورها في المدينة اعتماداً على مخططات توضيحية، مع تزويد الدراسة بالصور من خلال المعاينة الميدانية.

الكلمات المفتاحية: قسنطينة، الماء، حضارة، تقنيات، معمارية.

* المؤلف المرسل  (<https://orcid.org/0009-0004-1006-9308>)

Abstract:

Human life is linked to the most important element, which is water. This vital element is considered a water heritage shared by all civilizations of the ancient world, which thrived on its presence to ensure their survival and continuity. Through this study, we aim to highlight the techniques of storing and transporting water to the ancient city of Constantine in various ways and methods adopted by each civilization (Roman and Ottoman) in order to exploit this vital element in the construction and development of society. Each civilization that passed through this city developed alternative strategies and plans to ensure the availability of water when needed in anticipation of climate fluctuations and lack of rainfall. The topic is of great importance as these civilizations, especially the Romans, relied on the construction of water architectural structures to preserve water, such as reservoirs and basins, and then developed methods and techniques to transport water to the ancient city of Constantine through canals to reach public facilities and its constituent dwellings. We have identified the most important water architectural structures during the Ottoman period, highlighting their components and defining their role in the city based on illustrative diagrams and providing the study with photos through field sampling.

Keywords: Constantine, water, civilization, techniques, architectural.

مقدمة:

يُعتبر الماء شريان الحياة الذي قامت عليه جميع الحضارات، فهو حاجة ضرورية لا غنى عنها وأساس من أساسيات هذه الحياة، لقوله تعالى "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ" (من سورة الأنبياء- الآية رقم 30). ازدهرت كل حضارة حيث تواجدت بُغية حماية أراضي مستعمراتها لضمان البقاء والاستقرار بها، ومن بين تلك المستعمرات مدينة قسنطينة العتيقة التي شهدت تطورًا كبيرًا في مختلف المجالات خاصة العمران، منذ العهد الروماني عرفت هذه المدينة تنوعا في عديد المعالم والمنشآت المائية التي أضفت جمالية على طابعها المعماري، وأبرزت مختلف الطرق والأساليب التي تبنتها كل حضارة من أجل استغلال المياه، من أهم هذه المنشآت تلك الخاصة بالتجميع والتخزين (الأحواض والخزانات)، منشآت النقل (الجسور والقنوات المائية) ومنشآت الاستغلال والتي غالبا ما تمثلت في الحمامات الحرارية.

يصبو هذا البحث إلى أهداف وهي إبراز مختلف الطرق والأساليب لنقل الماء والتي اعتمدتها الحضارات التي مرت بمدينة قسنطينة العتيقة، فمن خلال الأبحاث والدراسات السابقة وجدنا أن هذه الحضارات قد وضعت خطط بديلة لضمان وفرة المياه خاصة الحضارة الرومانية، فمنذ الوهلة الأولى أدركوا أن جريان الماء واستمراره أمر صعب ما جعلهم يتفطنون لوضع استراتيجيات تحسباً لحالات الجفاف. فما هي أهم التقنيات والأساليب لنقل المياه التي اعتمدتها الحضارات التي مرت على مدينة قسنطينة العتيقة؟

للإجابة على الإشكالية المطروحة قسمنا هذه الدراسة إلى قسمين، تطرقنا في القسم الأول إلى الإطار الجغرافي والتاريخي لمدينة قسنطينة العتيقة، وفي القسم الثاني عرّفنا بالمنشآت المعمارية المائية في الحضارتين الرومانية والعثمانية، وبينّا أهم التقنيات والأساليب المستعملة لاستغلال الماء في كلتا الحضارتين.

وقد اعتمدنا على المنهج التاريخي التحليلي الذي يركز على فحص مجمل المصادر التاريخية والوثائقية التي استطعنا الوصول إليها، والجانب التطبيقي الذي اعتمدنا فيه على منهج وصفي يسمح لنا بلمس أساسيات البحث، ووصف وتحديد موقع المنشآت المعمارية المائية في مدينة قسنطينة العتيقة، مع إبراز أساليب نقل المياه لها من خلال مخططات وصور المعاينة الميدانية وصولاً إلى نتائج وحلول إشكالية البحث المتناول.

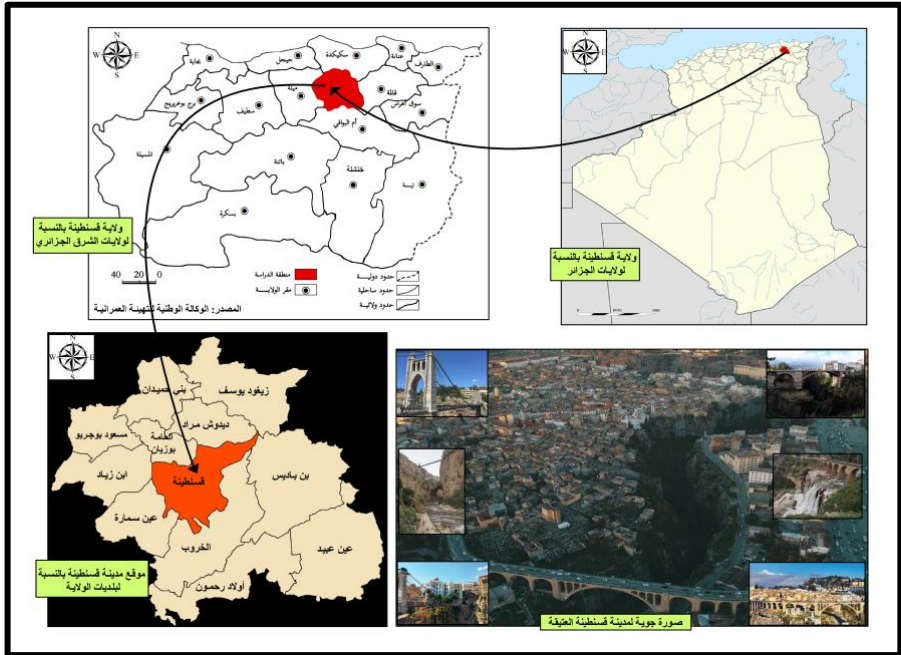
الإطار الجغرافي والتاريخي لمدينة قسنطينة العتيقة

الإطار الجغرافي:

تقع قسنطينة في الشمال الشرقي للجزائر، على بعد 240 كلم بالضبط من الحدود الجزائرية التونسية شرقاً، حوالي 437 كلم من الجزائر العاصمة غرباً، 86 كلم من سكيكدة شمالاً، و235 كلم من بسكرة باتجاه الجنوب (العروق، 1984، صفحة 14).

ما يجعل مدينة قسنطينة العتيقة فريدة من نوعها هو موقعها الاستثنائي المتربع على كتلة صخرية، تبرز تجمع حضري يتوزع على قاعدة شبه منحرفة المسقط بمحيط يبلغ 03 كم، وغالباً ما تُقارن بعش نسر متوضع على هضبة عالية يبلغ ارتفاعها 600م، والتي تحيط بها منحدرات وعرة ومتداخلة، مما أكسبها اسم "بلاد الهوى" (Boufennara, 2008, p. 87).

جغرافيًا، تقع صخرة قسنطينة العتيقة بين 03 كتل، فالكتلة الجنوبية عبارة عن تلي بوفريكة وعين الباي، أما الكتلة الشرقية فتشمل باب القنطرة والمنصورة وصولاً إلى جبل الوحش، بالنسبة للكتلة الغربية فهي تلّة الكدية عاتي (Coudiat Aty) التي يبلغ ارتفاعها 300م، وهضبة المنظر الجميل (Belle Vue). ونجد بجبهتها الشمالية الحامة بوزيان وبكيرة. (PPSMVSS, 2011, pp. 18- 19)



لوحة رقم 1: الموقع الإداري لمدينة قسنطينة

الإطار التاريخي:

بما أن البحث يركز على طرق جلب المياه لمدينة قسنطينة العتيقة، فقد وجدنا من خلال البحوث التي قمنا بها أن المنشآت المعمارية المائية، ظهرت وتطورت فقط خلال العهد الروماني والعثماني، لذلك ارتأينا وضع لمحة تاريخية لكلا العصرين.

خلال العهد الروماني:

عُرِفَت مدينة قسنطينة في الفترة النوميدية باسم "كرطن" والتي تعني المدينة أو القلعة، ولضرورة يقتضيها النطق قرأها الرومان فيما بعد وفقا للغتهم اللاتينية سيرتا (Cirta). وقد استغل الرومان ضعف المملكة النوميدية بعد توغلهم في أراضي إفريقيا لاحتلال قسنطينة سنة 46 ق.م، ثم استرجعها القائد النوميدي أرابيون. بعد قيادته لمقاومة محلية بين سنتي 41 و 44 ق.م أين قتل "سيتيوس" (بورويبة، 1978، الصفحات 46-47). بعدها تمكن الرومان من احتلال مدينة قسنطينة، ونظموا إقليمها سنة 27 ق.م بتأسيس الإتحاد السيرتي الذي استمر إلى غاية 251م، وأثناء هذه الفترة تم إنشاء تنظيم إداري خاصا بمدينة سيرتا والذي يعرف بنظام الكنفدرالية (Leschi, 1937, pp. 28-34)، فكانت عاصمته سيرتا (قسنطينة) التي تضم ثلاث مدن كبرى شرقية إلى جانبها وهي: ميلاف (ميلة)، شولو (القل) وروسيكادا (سكيكدة) بحيث يوجد بكل واحدة منها حاكم يستند في حمايته إلى سيرتا العاصمة (دحدوح، 2010، صفحة 66).

وضع ستيفان قزال مخططا أوليا للآثار الرومانية التي اندثرت ضمن الخريطة الأثرية لمدينة سيرتا، إستعانة بكل الاكتشافات التي وجدت قبل سنة إصدار الأطلس الأثري للجزائر في 1911، مستعينا أيضا في وضع مخططة بمخطط رسومات رافوازي ودولامار. وعرفت سيرتا عام 107 ق.م ازدهارا قويا للعمارة الرومانية، أين قد تم إنشاء العديد من العناصر المعمارية المكونة لها، كالحمامات، والتي تميزت بكثرتها لوجود مجاري مائية حارة بالمدينة أهمها حمامات القيصر وباكاتوس؛ المعابد، أهمها معبد باخوس بحيث تتواجد بالشوارع المؤدية لها عديد التماثيل التي تُترجمها النقوش اللاتينية على أنها تماثيل تعبر عن نصر الشعب وعبقريته (بوزراع، 2009، صفحة 23)؛ وقد زُيّنت شوارعها وساحاتها بالتماثيل وأقواس النصر، أهمها قوس مدخل الفوروم الشمالي، وقوس بالقرب من المسرح الحالي وغيرها (Mercier, Histoire de Constantine, 1903, pp. 72-76)؛ كما تم إنشاء خمسة جسور فوق واد الرمال على شكل قنوات ناقلة للمياه، ومنها التي على شكل سدّ لجمع المياه المتدفقة، وجسرين الأول منهما يقع على بعد 100 قدم من نقطة التقاء واد "بومرزوق" وواد "الزّمال"، والجسر الثاني بالقرب من التقاء واد "المنية" بواد الرمال (دحدوح، 2010، صفحة 68) الذي يصبّ في النسيج العمراني للمدينة عبر قنوات تتصل بخزانات الكدية.

خلال العهد العثماني:

جاء العثمانيون إلى المغرب الأوسط تلبيةً للنجادات التي كان يطلبها سكان السواحل من الإخوة ببروس، أهمها الجزائر، وهران، بجاية، جيجل وغيرها من المدن الكبرى التي تعرضت إلى الهجومات

الإسبانية، والتي سقطت فور تعزيز قوة الإخوة بربروس للقضاء عليها، ثم حدث وأن توغلت هذه الحاميات العثمانية في بلاد المغرب الأوسط للاستيلاء عليها.

رغم غياب المصادر المعاصرة للعهد العثماني يرى فايستس (Vayssettes) أن تاريخ دخول الأتراك لمدينة قسنطينة قد كان 923هـ/1517م (Vayssettes, 1867, pp. 275-285)، بينما ابن العنثري ينقل لنا أن دخول الأتراك للمدينة قد كان سنة 928هـ/1522م، بعد غزو خير الدين بربروس مدينة القل سنة 1521م (ابن العنثري، 2007، صفحة 39).

قرر حسن باشا بن خير الدين تقسيم الجزائر إلى ثلاثة أقاليم، بحيث كل إقليم منها يحمل اسم "بايلك" من أجل ضبط السلطة والحكم، فكانت على النحو التالي: بايلك الجزائر أو دار السلطان، بايلك الغرب وعاصمته مازونة ثم معسكر، لكن بعد تحرير وهران من يد الإسبان فقد أصبحت عاصمته، وبايلك التيطري عاصمته المدينة، أما بايلك الشرق فعاصمته قسنطينة (ابن العنثري، 2007، الصفحات 43-44)، وعُيّن على كل بايلك نائباً عن الداي يحمل لقب "الباي". توالى على حكم بايلك الشرق 42 بايا أولهم رمضان تشولاق باي (1567-1574م) وآخرهم هو الحاج أحمد باي (1826-1837م) كما تعد فترة صالح باي (1771-1792م) من أهم الفترات التاريخية، أين عرفت المدينة في عهده الأمن والاستقرار إضافة إلى الازدهار والتطور الذي حققه في مختلف المجالات، حيث نظم الشوارع وشيد البنايات، فانتشر العمران داخل المدينة وخارجها، ومن أهم منجزاته المعمارية تشييده لمسجد ومدرسة سيدي الكتاني (دحدوح، 2010، صفحة 102)، وقد أقام بالقرب منها بيوته الخاصة التي امتازت بالضخامة والسعة، وقام أيضا بتوسيع رقع مقاطعته. وكما سبق الذكر فقد سار على نهج الحاج أحمد باي الذي قام بمراقبة الأسواق وقمع الغش، وانتشر بحكمه العدل والعفو، من أهم منجزاته المعمارية قصر أحمد باي الذي يحمل اسمه (دحدوح، 2010، صفحة 109)، ويعتبر تحفة فنية رائعة في مثال معماري، امتدت أشغال بنائه مدة قاربت العشر سنوات، وهو بذلك يؤرخ فترات الازدهار التي عرفت المدينة بعهد.

ظلت مدينة قسنطينة حاضرة تركية والمدينة الثانية بعد العاصمة طوال ثلاثة قرون، فهي عاصمة بايلك الشرق، وأضحى الحكم العثماني بها ملازما لازدهار الحياة السياسية، الاقتصادية والعمرانية (العياشي، 2011، الصفحات 22-23).

المنشآت المعمارية المائية في مدينة قسنطينة العتيقة

1.2. المنشآت المعمارية المائية خلال العهد الروماني:

شهدت المدينة خلال هذه الفترة ازدهاراً عمرانياً متطوراً للمرافق العامة خاصة الحمامات، لغنى المنطقة بالمياه الحارة وكثرة الينابيع الطبيعية، أهمها منبع بومرزوق الذي كان مصدر مياه الشرب لدى سكان المنطقة، فقد جلبوا المياه منه عبر قنوات ناقلة تحت الأرض، بتخطيط وهندسةٍ دقيقين مع وجود أقواس بها في غاية الإتقان (ابن المبارك، 1952، الصفحات 8-9). ثم جفّت مياه هذا المنبع ليلجأ سكان المدينة فيما بعد إلى استغلال واد الرمال، لتوفّر على ينابيع ملائمة للشرب أهمها منبع عين الواب فهو الأكثر برودة ونقاوة، كذلك لتوفّر ينابيع ذات درجة حرارة مرتفعة نسبياً قدرها 28°، والتي استُغلت كحمامات أهمها منبع سيدي راشد، منبع عين الشفة بباب القنطرة (دحوح، 2010، الصفحات 36-37). استعمل الرومان منشآت لنقل المياه تتمثل في قنوات تحتية أهمها قناتي سيدي مبروك وجبل الوحش، حيث صبّت هذه القنوات بمنشآت التجميع والتخزين، أهمها الخزانات المتواجدة بالكدية عاتي والقصبية، ومن خلال الأبحاث والآثار المتبقية قمنا بتحديد هذه المنشآت المائية كالتالي:

الحمامات الرومانية:

تم ذكر جميع الاكتشافات الأثرية بنسيج الصخرة العتيقة لقسنطينة في الأطلس الأثري لستيفان قزال عام 1911م بالورقة رقم 17، الموقع رقم 126، أين نجد كل ما يتعلق ببقايا الحمامات الرومانية، ومن خلال هذه الاكتشافات التي قام بها المختصون، فقد توصلوا إلى:

بقايا حوض وفسيفساء مجسمة تدل على وجود حمامات رومانية في شارع "صلاحي طاهر" تحديداً شارع "سيدي بوعنابة".

بقايا معمارية تدل على وجود حمام روماني، من خلال نقيشة قد كتب عليها "Thermas Constantinianus" بمدرسة الخلدونية الواقع مكانها في شارع 12 ماي 1956 أو ما يعرف بـ "la rue de chevalier".

تم تحديد مؤسسة كبيرة تسمى حمامات باكاتوس "C. Arrius Pacatus"، عند تقاطع شارع 19 جوان 1965 وشارع الإخوة منتوري بشارع سطايفي من خلال نقيشة مكتوب عليها "balineum pacatianum". (Pouille, 1886, p. 315).

اكتشاف بقايا حوض كبير في شارع رواق السعيد بالتحديد موقع المستوصف.

حمام سيدي مسيد الذي يقع بمضيق واد الرمال أسفل الجانب الشرقي لجسر سيدي مسيد.

منيع سيدي ميمون الذي يقع غرب المدينة أسفل القصبة، وهو مغطى بمبنى مقبب نصل إليه من خلال فتحة الجدار الخلفي للقصبة وسلم منحوت في الصخر، وهو من بين الينابيع الحارة التي اعتبرها الرومان مركزا استشفائيا هاما (Gsell, 1911, p. 18).

حمامات القيصر (انظر صورة رقم 1) وقد تم العثور على البقايا المخلفة منها أثناء فيضانات عام 1957م، بمضيق واد الرمال تحديداً بالقرب من محطة السكة الحديدية بباب القنطرة، حيث كانت هذه الحمامات الرومانية تجذب عائلات الطبقة المخملية، لدفع مياهها والتمتع بجمال المناظر الطبيعية الفريدة المحيطة بها (Mehenni, 2011, p. 180).



صورة رقم 1: بقايا حمامات القيصر

المصدر: www.aps.dz/regions/88016-chemin-des-touriste

القنوات الرومانية:

ذهب الرومان على بعد 50 كلم باتجاه الجنوب للاستيلاء على مياه منبع "راس واد بومرزوق"، وجّهوها نحو الضفة اليسرى لواد بومرزوق إلى غاية واد الرمال، فعبرت هذا الأخير قناة عملاقة تتكون من ثلاثة طوابق، لم يبق منها سوى بضعة أكوام كشاهدٍ على هذا العمل الجميل (Mehenni, 2011, p. 181). لهذه القناة خمسة أقواس مبنية بالحجارة المصقولة، طولها الإجمالي حوالي 51م وعلو حنايا القنطرة حوالي 18م، تقع في حقل يسمى "الأقواس" أين بقت منها سوى كومة متوضعة بين الجسر ومفترق الطرق. وقد تم جلب المياه إلى سيرتنا من جبل الوحش بواسطتها، والتي كان من المقرر أن تسهل ذهاب هذه المياه إلى المدينة. (انظر صورة رقم 2)



صورة رقم 2: بقايا قناة مائية Aqueduc de Cirta

مرت المياه عبر خزانات المنظر الجميل بواسطة قناة ناقلة متوسطة الضغط، لتتبعها من هناك قناة أخرى تتجه نحو المنحدر الشمالي للكديية "Coudiat Aty"، وصولاً إلى مبنى الكابيتول أين توجد خزانات كبيرة. ومن بين القطع الأثرية التي تم العثور عليها في ساحة "لابراش La Brèche" أنابيب فخارية

بأقطار مختلفة قادمة من خزانات "المنظر الجميل Belle Vue" لجلب المياه إلى المدينة (Mehenni, 2011, p. 181).

استغل الرومان الجسور أيضا كقنوات لتوصيل وتوجيه المياه القادمة من جبل الوحش وسيدي مبروك نحو خزانات الصخرة العتيقة، كانت توجد ثلاثة جسور ولم يبق منها سوى جسر واحد يقع تحت جسر القنطرة، (انظر صورة رقم 3) الثاني لا تزال بداياته مرئية على الضفة اليمنى لواد الرمال تحت المدرسة "El-Madersa"، أما الثالث فنلاحظ منه كومة بقاياها التي تنتهي عند الطرف الجنوبي من جسر سيدي راشد، وتشير بقاياها إلى أن الرومان قد استغلوه كسدّ لإيقاف الماء عند مدخل مضيق واد الرمال، إما لإنشاء بحيرة بمثابة خزان أو للصيد من أجل تنظيف الواد (Mehenni, 2011, p. 181).



صورة رقم 3: قناة رومانية تحت جسر القنطرة

الخزانات الرومانية:

من أهم الخزانات التي تم اكتشافها في ورقة الأطلس الأثري رقم 17 بالموقع 126 ما يلي:

خزانات كدية عاتي الكبيرة والتي تأخذ شكلا مستطيلا بقي منها جزء أبعاده (32.70م x 6م)، وقد لعبت هذه الخزانات دورا هاما في تزويد المدينة بالمياه، لتمييز جدارها الضخم بتحمل قوة وسرعة الماء الذي يصب في الخزانات.

خزانات المنظر الجميل (Belle vue) أصبحت حاليا ثكنة عسكرية تقع بجانب محطة الترامواي الأولى (بن عبد المالك رمضان)، كانت تتصل بها القناة الرئيسية لمياه المدينة قبل توجيهها إلى خزانات كدية عاتي، حيث لعبت دور التصفية. (انظر صورة رقم4)

خكزانات باب الجابية، التي تساهم في تموين الجزء الجنوبي للمدينة بما فيه من نافورات وعيون.

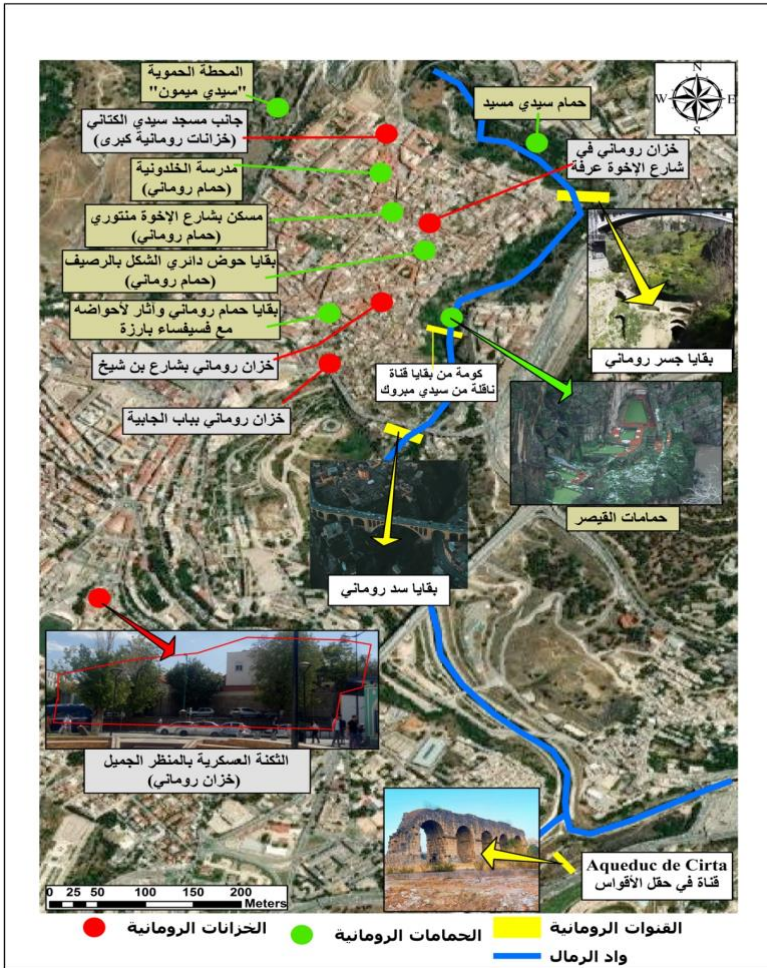
بئر روماني لعب دور خزان، متواجد في القصبة شمال غرب المدينة وتم تزويده بأنايب تنقل المياه من خزانات المنظر الجميل.

خزان روماني في شارع "الإخوة عرفة"، امتدادا في نفس المحور باتجاه الزاوية الرحمانية، ويخزن هذا الصهريج المياه المنقولة عبر القناة التي تقع تحت جسر القنطرة.

آثار حوائط مغطاة بالواح رخامية مختلفة الألوان ومحفورة بمنافذ، توجد بها أيضا فسيفساء وصهاريج في قاعدة منزل "سي حمودة"، الذي يحتل المبنى المجاور للجامع الكبير" في شارع "بن الشيخ لفقون".



صورة رقم 4: المكان الذي كانت فيه خزانات المنظر الجميل (الثكنة العسكرية حاليا بالجهة الشرقية للترامواي)



لوحة رقم 2: توزيع المنشآت المعمارية المائية خلال الفترة الرومانية في قسنطينة العتيقة

نظراً للخصوصية التضاريسية للمنطقة نشأت فكرة إنشاء سدود، فمن جهة لجمع مياه الأمطار والثلوج تحسباً لأيام الجفاف، ومن جهة أخرى لارتفاع الانحدارات الوعرة، ما يجعل موقع هذه السدود صعب الوصول خاصة خلال فترات الحروب. كما يبدو جلياً بأن بقايا السدود على ضفاف واد الرمال، تدل على أنها قد كانت بمثابة الخزان الطبيعي الذي استغله السكان للشرب، حيث لعبت بعض الخزانات

دور أحواض لتصفية المياه الملوثة، تفاديا للأوبئة أهمها خزانات المنظر الجميل، التي كانت تحتوي على أكياس قماش يوضع بداخلها الكلس من أجل تصفية المياه من كل الشوائب، فتشكلت أجسام كلسية مع مرور الزمن بفضل الترسيبات المتراكمة أثناء عملية التصفية، ولا تزال بعض من هذه القطع محفوظة بالمتحف الوطني سيرا.

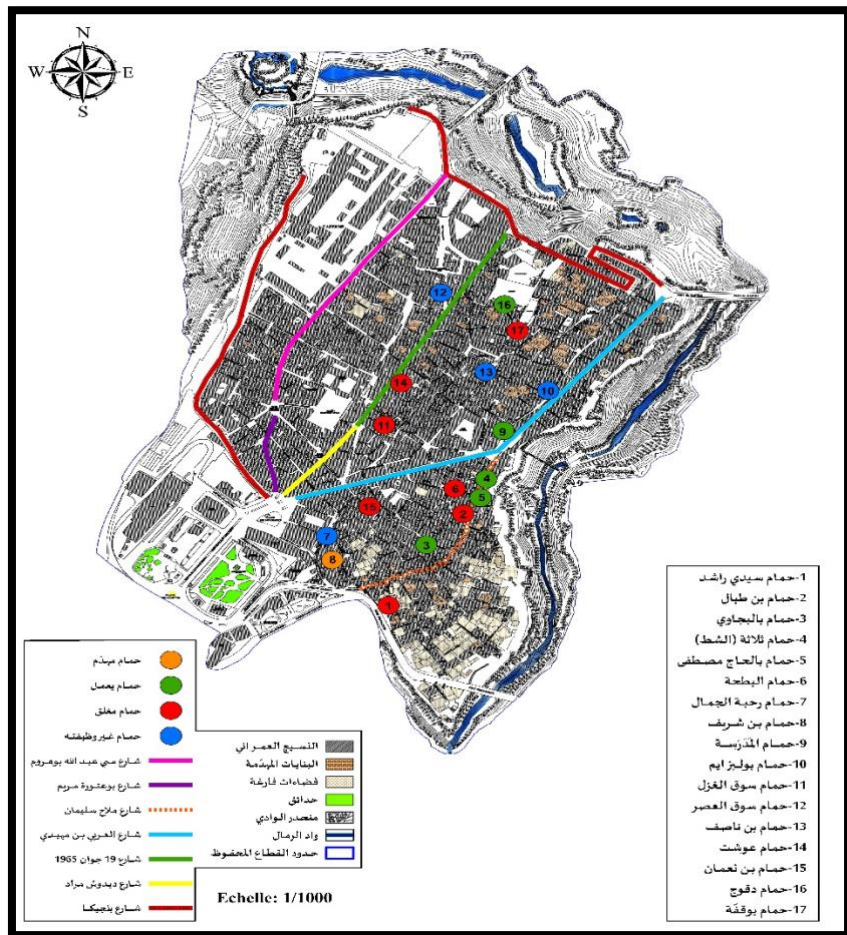
وكانت المياه تصل إلى الخزانات الواقعة بمنتصف منحدر كدية عاتي عبر قناة ناقلة من منبع بومرزوق، لتوزع مباشرة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي عبر عدة أنابيب فخارية. تلتقي كلها بواسطة قناة ناقلة بين المدينة وتلة وصولها، وبذلك فهذه الخزانات الضخمة تُعتبر الممّون الرئيسي لكل المعالم المشكّلة للمدينة ما عدا خزانات شارع الإخوة عرفة التي تخزن مياه القناة الواقعة تحت جسر القنطرة.

المنشآت المعمارية المائية خلال العهد العثماني:

ضمّ النظام التخطيطي للمدينة جانب العمارة الدينية والمدنية "المرافق العامة" كالأسواق، الأسبلة، المخازن، المستشفيات، الفنادق، الساحات العامة والحمامات. هذه الأخيرة تعتبر موروثا ماديا ملموسا من خلال هندسته المعمارية ذات الطراز العثماني ما جسد موروثا آخر غير مادي بفضل عاداته وتقاليده التي تجلّت بين أفراد المدينة منذ وفود الغزو العثماني.

حمامات مدينة قسنطينة العثمانية:

تواصلت عملية بناء الحمامات بالجزائر خلال الفترة العثمانية (1514-1830م) (ابن المبارك ، 1952، صفحة 9)، ومن بين الأمثلة التي تشهد على ذلك حمامات قسنطينة العتيقة، حيث كان الدافع الأول لبناء هذه الحمامات هو الدين الإسلامي الحنيف الذي شرط نظافة الروح والبدن، والذي كان له قيمة حضرية عالية لدى العثمانيين. وتميزت بوقوعها ضمن النسيج العمراني للمدينة وقرىها من المساجد والزوايا والأسواق، خاصة بالجزء السفلي من الصخرة، تم بناؤها بين القرن الخامس عشر وبداية القرن التاسع عشر، وفق النظام العام لاستغلال المياه الذي وضعه الرومان دون محاولة شق طرق قنوات جديدة، ما عدا محاولة إحياء قناة جبل الوحش خلال عهد صالح باي (Mercier, 1878, p. 296).



لوحة رقم 3: توزيع الحمامات العثمانية في مدينة قسنطينة العتيقة

(عن PPSMVSS + معالجة شخصية)

تتضمن مدينة قسنطينة العتيقة خمسة أحياء كبيرة ينتشر فيها ما يعادل حوالي 17 حمامًا، حيث تجتمع معظمها في المنطقتين المركزيتين "سوق التجار" و "باب الجابية"، وسط "ذيّار العرب" بالأحياء الشعبية أهمها حي "السوقية"، وهي منازل ذات طراز معماري إسلامي، موروثه من العصر التركي والتي عموما ما تفتقر للحمام الساخن، على عكس منازل الأحياء الأوروبية خاصة المتواجدة بشارع ديدوش

مراد، شارع 19 جوان 1965، شارع العربي بن مهيدي... حيث نُقِشت أسماء الحمامات على لوحات واجهة مدخلها مثل حمام سوق الغزل، حمام البطحة، حمام بن طَبَّال وغيرها.

وقد لاحظنا خلال معائنتنا الميدانية لحمامات قسنطينة العثمانية، أنه يتم تزويد البعض منها بالماء اعتمادا على الآبار التي عموما ما تكون بجزء من مبنى الحَمَّام، والبعض الآخر من الحمامات تحتوي على أحواض وخزانات حجرية كبيرة متواجدة بغرفها إما الدافئة منها أو الباردة. وارتبطت هذه الخزانات بأنابيب فخارية التي كانت تموِّنها باستمرار من مياه واد الرمال، الذي يُعتبر بمثابة المصدر الأساسي للماء، كون الموارد المائية للمدينة قد كانت قليلة جدًا. وفي رواية أخرى ذكر الورثيلاني خلال رحلته، أن أهل قسنطينة كانوا يجلبون الماء من واد الرمال عن طريق الدواب ليغتسلوا ويستسقوا به (ورثيلاني، 1974، صفحة 686). وأحدث أهل المدينة طريقا للوصول إليه أين وصف ابن المبارك هندسته المحكمة والمتقنة (ابن المبارك، 1952، صفحة 98).

جدول رقم 1: حالة حفظ الحمامات

الرقم	الحمام	وضع الحمام	حالة حفظ الحمام
01	حمام سيدي راشد	مغلق	سيئة
02	حمام بن طبال	مغلق	سيئة
03	حمام بالبجاوي	يعمل	جيدة
04	حمام ثلاثة (الشط)	يعمل	متوسطة
05	حمام بالحاج مصطفى	يعمل	متوسطة
06	حمام البطحة	مغلق	سيئة
07	حمام رحبة الجمال	غير الوظيفة	--
08	حمام بن شريف	مُهَدَّم	سيئة
09	حمام المتزسة	يعمل	متوسطة
10	حمام بولزاييم	غير الوظيفة	--
11	حمام سوق الغزل	مغلق	سيئة
12	حمام سوق العصر	غير الوظيفة	--
13	حمام بن ناصف	غير الوظيفة	--
14	حمام عوشت (مزابي)	مغلق	سيئة
15	حمام بن نعمان	مغلق	سيئة
16	حمام دقوج	يعمل	جيدة
17	حمام بوقفة	مغلق	سيئة

المصدر: صاحبة المقال

بالنظر إلى عمر الحمامات فحالة بنائها تختلف من سبب إلى جِدِّد، ووفقًا للجدول رقم 1 المذكور أعلاه نلاحظ أنه من بين كل الحمامات الموزعة على النسيج العمراني للمدينة، نجد منها خمسة حمامات

فقط لا تزال تعمل (حمام دقّوج، حمام بالحاج مصطفى، حمام ثلاثة، حمام بالبجاوي، حمام المندّوسة)، وسبعة أخرى قد أُغلقت بسبب إما تدهور حالة حفظ المبنى أو الترميمات، أربعة منها قد غيرت وظيفتها فمنها التي تحولت إلى محلات بيع الملابس ومنها من أصبح بيتًا للسكن، بالإضافة إلى حمام بن شريف الواقع برحبة الجمال والذي قد تهدم كليًا.

تشابه حمامات قسنطينة العثمانية تقريبا في توزيع وحداتها المعمارية وتنظيمها المساحي، خاصة الحمامات التي لا تزال تعمل حاليا، فتكون عبارة عن مبنى متواضع يختلف في تصميمه تماما عن الحمام التركي، إذ يعتبر هذا الموروث حمام عثماني ذو طابع محلي، أهم أجزائه "وسط الدّار" أو المعروفة محليًا بـ"الدّكانة" ثم تلتف باقي الغرف من حولها.

نظرا لهذا التشابه في تصاميم حمامات قسنطينة ارتأينا أخذ حمام دقّوج (Deggoudj) كنموذج لدراسة الحمامات معماريًا كما يلي:

حمام دقّوج:

يقع الحمام بجانب شارع "الإخوة عرفة" الذي تتواجد به زاوية عبد الرحمان باشتارزي، تحديدا أمام محطة التليفريك "طاطاش بلقاسم" التي يتقدمها موقف السيارات الذي حلّ محل حومة أو زنقة "الشارع". يأخذ هذا الحمام الجزء السفلي من المسكن الذي تعود ملكيته حاليا للسيدة بوحجة فتيحة، حيث سُمّي بـ"حمام دقّوج" نسبة للولي الصالح "سيدي دقّوج" المدفون به حاليا قرب غرفة الاستقبال، حيث يرجع نسبه إلى عائلة "كتشك علي" حسب ماترويه صاحبة الحمام، وهي عائلة كرغلية من أصول تركية، أما بالنسبة لفترة بنائه فلم نجد أي لوحة تذكارية تدل على تاريخ تأسيسه، ولم تتفق الروايات الشفوية حول تاريخ بناء الحمام بدقة، حيث تراوحت التقديرات بين بداية القرن السادس عشر ميلادي ونهايته.



لوحة رقم 4: موقع حمام دقّوج

التنظيم المساحي لحمام دقّوج:

يتم الولوج إلى حمام دقّوج عبر مدخل رئيسي به باب خشبي حديث متكون من مصراع واحد، يقع في الركن الشرقي للحمام (جهة القبلة) عرضه 1,10 م وارتفاعه 2 م، وهو يفضي إلى سقيفة مستطيلة الشكل أبعادها (1,80 X 1,20 م)، نجد بجدارها الأمامي باب آخر عرضه 1 م وارتفاعه 1,79 م، وهو يفضي مباشرة إلى:

غرفة الاستراحة "وسط الدّار": تأخذ الغرفة شكل مستطيل غير منتظم، وهي بسيطة تخلو من الزخارف والعلامات التي تجذب الانتباه، يتم الولوج إليها مباشرة من السقيفة عبر باب عرضه 1 م، تحتوي على حجرتين فالأولى عبارة عن صالة لاستقبال الزبائن، نجد بها على يسار المدخل الفنيقي الذي هو عبارة عن عداد المحاسبة أين يتم فيه دفع ثمن الحّمّام، وغالبا ما يكون في إحدى زوايا هذه الغرفة، نجد في شمالها الشرقي قاعة مخصصة لضريح صاحب الحمام "سيدي دقّوج". أما بالنسبة للحجرة الثانية الواقعة بالجنوب الغربي فهي مخصصة للاسترخاء والاجتماع بعد الحّمّام، والتي تأخذ مساحة مستطيلة المسقط، لها منصات مرتفعة بـ 20 سم حول جدرانها، كما نجد بجهتيها الشمالية مكان لنزع وارتداء الملابس، وتميزت هذه الحجرة بعدم وجود أي فتحات من أجل التهوية، حيث استُخدمت مصابيح النيون للإضاءة طوال أيام العمل.

تحتوي وسط الدار على سُلّمين، أحدهما خشبي يقع على يمين مدخل الغرفة ويؤدي إلى الطابق العلوي، الذي هو عبارة عن عُليّة كانت تُخصص لاستضافة الغرباء والأجانب الذين لم يجدوا مكانا للمبيت فيه، أما حاليا فهي عبارة عن مخزن. بالنسبة للسُلّم الثاني فيتكون من ثلاث درجات من الحجر والباقي من الخشب، ويقع في نهاية الغرفة ويؤدي إلى سطح المبنى عبر باب عرضه 1 م وارتفاعه 1,50 م.

الغرفة الباردة "البيت الباردة": وهي عبارة عن غرفة مستطيلة المسقط نُلج إليها عبر باب فُتح بالجدار الأيمن لوسط الدار، فنجدها خالية من المقاعد مما يدل على أنها ليست مخصصة للاستحمام، بل تلعب دورًا هامًا في تخفيض درجة الحرارة، وعموما ما يتم استخدامها أيضا كخزان احتياطي للمياه في حالة نفادها. تحتوي هذه الغرفة على مرحاض، كما فُتحت بسقفها المُحدّب فتحة مربعة الشكل من أجل الإضاءة، التي احتوت على أنبوبان يمتدان إلى السطح ليعملا كفتحات تهوية.

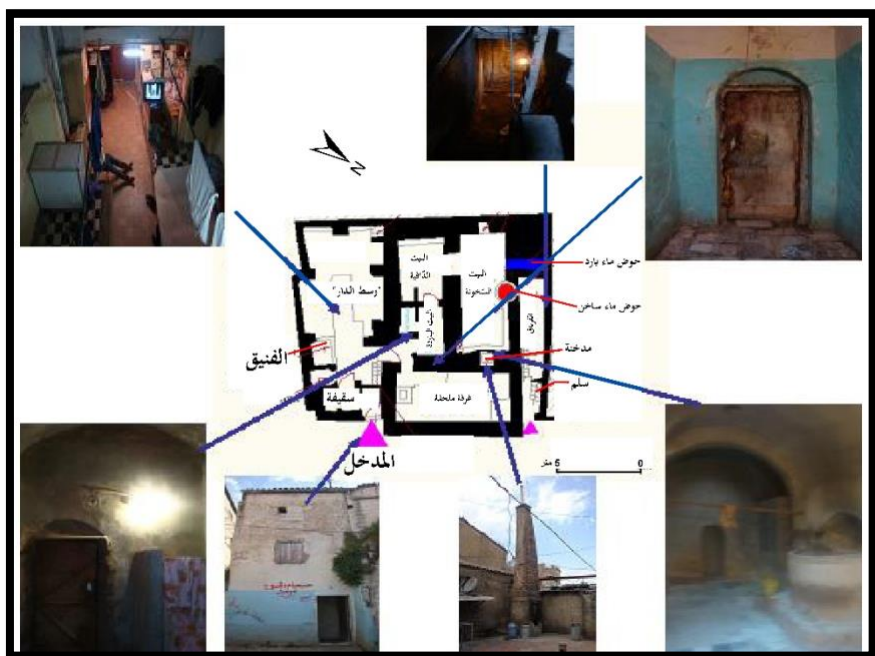
الغرفة الدافئة "البيت الدّافئة": ويُطلق عليها أيضا اسم "البيت الوُسْطانيّة"، ندخل إليها عبر باب حديدي فُتح بالجدار الأيسر للبيت الباردة، عرضه 80 سم وارتفاعه 1,83 م، تتميز درجة حرارة هذه الغرفة بالاعتدال، فتكون مرتفعة مقارنةً بدرجة حرارة الغرفة الباردة ومنخفضة قليلاً مقارنة بدرجة

حرارة الغرفة الساخنة، دورها الرئيسي هو عمل ممر معتدل بين درجتي الحرارة المرتفعة والمنخفضة. تأخذ شكلا مربع المسقط تقريبا حيث طول ضلعها حوالي 2,5م، تحتوي على مقعد في جدارها الأمامي الذي يرتفع عن الأرضية بحوالي 46 سم، كما نجد بها يسار مدخلها مباشرة، ركن للاستحمام بشكل خاص يُعرف بـ "بيت السُرة" والتي هي عبارة عن غرفة صغيرة منعزلة، من أجل الحفاظ على خصوصية وراحة الزبائن.

الغرفة الساخنة "البيت السخونة": هي غرفة الحمام الرئيسية التي تتميز بدرجة حرارة مرتفعة، حيث تُفتح على البيت الدافئة مما يوحي لنا بأنها غرفة واحدة مقسّمة إلى قسمين يشكلان حرف L، فالبيت السخونة تأخذ شكلا مستطيل المسقط أبعاده (2,40 X 6,40م)، نجد بجدارها الأمامي حوض مياه ساخن والذي يأخذ شكل إناء حجري كبير يسمى "بُرمة"، ثم نجد على يساره قليلا حوض آخر مستطيل الشكل، والذي يحتوي على ماء بارد، يُخلط عادة بالساحن للحصول على مياه ذات حرارة معتدلة.

الفَرناق: تُعرف في الحمام الإسلامي عامة والعثماني خاصّة غرفة "الفرناق"، أو ما تُعرف أيضا بـ "بيت النار"، التي يكون مستواها منخفض مقارنة بمستوى باقي غرف الحمام، بحيث غالبا ما يكون موقعها قريب من الغرفة الساخنة للحمام، من أجل تزويدها بالحرارة التي تمرّ أسفلها وعبر جدرانها (بن حوّ، 2013، صفحة 33)، وتتمّ هذه العملية عن طريق أنابيب وقنوات متوضعة داخل جدران وتحت أرضية الغرفة الساخنة، ما ينتج عن ذلك درجة حرارة عالية داخلها، وضمان بعض الحرارة للغرفة المجاورة لها والتي عموما ما تكون "الغرفة الدافئة". وتتجسّد عملية التسخين هذه على الحمامات العثمانية بمدينة قسنطينة العتيقة، التي تكون في معظمها غرفة الفرناق أسفل "البيت السخونة" مباشرة من أجل تزويدها بأكبر كمّ ممكن من الحرارة. يكون لدى فرناق حمامات قسنطينة مدخل مستقل تماما عن المدخل الرئيسي للحمام، من أجل تفادي أذى رواد الحمام من جهة، ومن أجل إبعاد كل ما هو قذر عن القسم الأساسي للحمام من جهة أخرى. يحتوي فرناق الحمام القسنطيني على "بُرمة" نحاسيّة أو حديدية، متوضّعة على موقد ينتهي أعلاه بمدخنة يتم من خلالها صرف الدخان الناتج عن الحرق.

يقع فرناق حمام دقّوج خلف بُرمة (حوض الماء الساخن) البيت السخونة مباشرة، ويتم الولوج إليه من الخارج عبر مدخل ضيق ذو باب حديدي له سلّم حجري يؤدي إلى سقيفة صغيرة، تُفتح على قبو مربع الشكل يحتوي على خزان مياه، كما نجد على يسار المدخل سلم آخر يؤدي إلى الموقد الذي يعمل حاليا بالغاز الطبيعي.



لوحة رقم 5: التنظيم المساحي لحمام دقّوج

عن: Mehenni (Nedjoua), p 197 بتصرف

خاتمة

من خلال هذا البحث نستنتج أن مدينة قسنطينة العتيقة عرفت العديد من المنشآت المعمارية المائية منها مدّ قنوات المياه، تشييد الجسور والحمامات الحرارية، إضافة إلى منشآت التجميع والتخزين المتمثلة في الأحواض والخزانات، حيث تطورت وازدهرت هذه المنشآت خلال الفترة الرومانية، كما أعيد استغلالها من طرف الدول الإسلامية المتتابة على مدينة قسنطينة العتيقة، ونفس الشيء بالنسبة للعثمانيين الذين أعادوا استعمال نفس التقنيات والأساليب لنقل وتخزين المياه مع بناء عدد معتبر من الحمامات العامة والذي بلغ عددها ما يقارب 17 حماما، من بينها خمسة حمامات فقط لا تزال تعمل إلى غاية اليوم هي حمام المدرسة، دقّوج، بالبحاوي، ثلاثة (حمام الهوى)، بالبحاوي مصطفى.

أما بالنسبة لتقنيات وأساليب نقل المياه لمدينة قسنطينة العتيقة، فقد برع الرومان في استخدام تقنيات عالية الأداء لجلب الماء إلى المدينة، حيث قاموا بتشييد منشآت لاستغلال المياه كالحمامات الحرارية، ونقلوا المياه عبر قنوات ليقوموا بتخزينها في صهاريج لاستغلالها وقت الحاجة.

جلبوا المياه إلى خزانات المنظر الجميل في بادئ الأمر من أجل تصفية الشوائب، ثم وجّهوها نحو كدية عاتي عبر قناة ناقلّة متوسطة الضغط، وصولاً إلى مبنى الكابيتول حيث الخزانات الضخمة التي تسمح بتموين كل أنحاء المدينة عبر أنابيب فخارية بأقطار مختلفة.

خلال الفترة العثمانية في مدينة قسنطينة، تم تشييد الحمامات العثمانية وفق النظام الروماني لاستغلال المياه دون الإخلال به، وقد كان الحمام عبارة عن جهاز حي للتعويض عن نقص الحمامات التي أغلب منازل الصخرة العتيقة، حيث كانت وظيفته ليست صحية فحسب بل اجتماعية أيضاً.

قائمة المصادر والمراجع

- الحاج أحمد ابن المبارك . (1952). *تاريخ حاضرة قسنطينة*. تحقيق نور الدين عبد القادر، الجزائر.
- الحسن بن محمد ورثيلاني. (1974). *نزوة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار*. بيروت-لبنان: دار الكتاب العربي.
- رشيد بورويبة. (1978). *قسنطينة سلسلة الفن والثقافة*. الجزائر: وزارة الإعلام والثقافة.
- سفيان بوذراع . (2009). *جرد ودراسة معروضات حديقة المتحف الوطني سبترنا قسنطينة*. مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الآثار القديمة، الجزائر: معهد الآثار، جامعة بوزريعة.
- عبد القادر دحدوح . (2010). *مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني "دراسة عمرانية أثرية"*. رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، الجزائر: معهد الآثار، جامعة بوزريعة.
- محمد الصالح ابن العنترى . (2007). *فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها*. تحقيق بوعزيز يحيى، الجزائر: دار هومة.
- محمد الهادي العروق. (1984). *مدينة قسنطينة: دراسة جغرافية العمران*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- محمد بن حمّو. (جوان، 2013). *خصائص الحمامات العثمانية في الجزائر من خلال نماذج مقارنة بالحمامات المرابطية والمرينية*. دورية كان التاريخية، العدد 20.

-هوارى العياشي . (2011). *المسكن بمدينة قسنطينة خلال العهد العثماني "دراسة تاريخية أثرية"*. مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التراث والدراسات الأثرية، قسنطينة: قسم التاريخ والآثار- جامعة منتوري قسنطينة 1.

Boufennara, K. (2008). *La réhabilitation comme processus du projet urbain: cas de Constantine*, Mémoire présenté pour l'obtention du diplôme de Magister en Urbanisme. Constantine (Algérie): Université des frères Mentouri- Constantine 1.

E Mercier. (1878). *Constantine avant la conquête française 1837*. Recueil des Notices et Mémoires de la société Archéologique de la province de Constantine.

Gsell, S. (1911). *Atlas archéologique de l'Algérie*. F17, n°126. paris.

L Leschi. (1937). *De la capitale Numidie à la colonie Romaine*. Recueil des Notices et Mémoires de la société Archéologique de la province de Constantine, N° LXIV .

Mehenni, N. (2011). *La reconnaissance architecturale d'un patrimoine socioculturel cas de : Hammam « Souk el-Ghezel » de la Medina de Constantine*. Thèse de Magister en architecture, Constantine: Université des frères Mentouri Constantine 1.

Mercier, E. (1903). *Histoire de Constantine*. Constantine (Algérie).

Pouille, A. (1886). *Inscriptions de la Maurétanie Sétifienne et de la Numidie*. Constantine: Imprimerie de Arnolet. L.

PPSMVSS. (2011). *Phase III : Rédaction finale du Plan Permanent de Sauvegarde et de Mise en Valeur des Secteurs Sauvegardés*. Constantine (Algérie): La direction de la culture de Constantine.

Vayssettes, E. (1867). *Histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517 à 1837*. Recueil des Notices et Mémoires de la société Archéologique de la province de Constantine.